الدكتور

محمد حبش

الحوار أو الدمار

Dialogue or Destruction

الحوار..... أو الدمار

وهن الذات ورهق الواقع
تأملات على شاطئ الحوار العاصف

بقلم

د.محمد حبش

الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره

2007

مقدمة

شرق وغرب

لم تكن العلاقة بين الشرق والغرب عبر التاريخ أشد دقة من الأيام الراهنة حيث تحملك نشرات الأخبار كل يوم على إدراك خطورة المشهد وأنه لا سبيل على الإطلاق لتأجيل البحث في هذه المسألة فالزمن ماض في سبيله المحتوم ,وطبيعة المجتمع الدولي تتشكل كل يوم, والغائب ليس له نائب, والحكم يصدر كل يوم وجاهيا أو غيابياً وفي النهاية فإن الجميع ملزمون بتحمل تبعاته.

لم يعد بالإمكان أبداً أن يخرج مجتمع ما من التاريخ بدعوى أن القيم العالمية لا تتناسب مع تراثه وتقاليده,وأصبح الدخول في نظام القرية الكونية قدراً ملزماً لسائر سكان الكوكب, ومع رحيل شخبوط لم يعد بإمكان حاكم ما أن يحتفظ بخزينة الدولة في حجرة النوم لأنها أكثر أماناً وأصبح المال العربي الإسلامي مهما كان نزيهاً وقومياً وثورياً مضطراً للدخول إلى النظام المصرفي العالمي,ومن المذهل أنه سيتحرك في القارات الخمس كل يوم ليكون في جزء من النهار في يد الأمريكيين ولو كان المصرف الذي ارتهنه أشد المصارف الإسلامية رفضاً للغرب الكافر!!

فكيف يمكن ترسم ملامح العلاقة المطلوبة بين الإسلام والغرب؟
مع أن كلمة الشرق والغرب ليست تعبيراً سليماً من الناحية الموضوعية ولكن لا بد لك - في الوقت الراهن على الأقل- من التعامل مع هذا المصطلح ,فكلمة شرق أدنى أو أوسط أو أقصى لا يمكن أن تدل على شيء إلا إذا وافقت مسبقاً على أن أوروبا هي مركز العالم,فهذا الشرق الأوسط ليس كذلك بالنسبة للصين أو الهند مثلاً بل هو غرب أوسط، والشرق الأدنى غرب أقصى، بل إن أمريكا نفسها شرق بالنسبة لليابان، وأوربا شرق أقصى بالنسبة للعالم الجديد، والأمر نفسه أيضا في مصطلح الشمال والجنوب وان كان لم يكتسب بعداً سياسياً، وكذلك المصطلح الزمني حيث نتداول المصطلح الأوربي بشأن العصور الوسطى، وهو مصطلح مفهوم في الثقافة الغربية للإشارة إلى عصر يتوسط حضارتين أوربيتين، ولكنه غير مفهوم وفق التاريخ العربي إذ يبادرك السؤال مباشرة: وسط بين ماذا ؟ إنه يتساوق زمنياً مع عصر الحضارة العربية، وهكذا نمضي في دوامة ضباب المصطلحات إلى ما لا نهاية وفق دلالات الأرض الكروية.
ولكن بغض النظر عن الجانب الموضوعي فإن التاريخ أيضا لم يكن أبدا ليسير على منهج واحد يرسمه الأقوى، إنه أيضا تداول الحياة في الصعود والهبوط، عصر يقوم وآخر يترامى، في دلالة واضحة، على أن سيرورة التاريخ تحكمها إرادة الله في حق الأمم في بلوغ أمانيها، وفق سنن الحياة وقانون أن ليس للإنسان إلا ما سعى.
ولكن لماذا يتصرف الأمريكيون كمن يملك نهاية التاريخ، فحين يتحرك الناطق الرسمي باسم البيت البيضاوي حاملا إرادة الرئيس لينقلها إلى الصحافة الفضولية المتربصة باركان البيت الأبيض، يتجمع لديك شعور بأنه يريد أن يقول أننا نرسم المصير البشري، وان التاريخ قال كلمته في المجد الأمريكي، وتكاد تقاريرها المتغطرسة تقول شيئاً واحداً لقد انتصر الغرب على الشرق، وتفوقت المادة على الروح، وأن عصر المادية الأمريكية هو نهاية التاريخ.
فهل هذا هو المشهد الذي يرسم آخر فصل في التاريخ بحيث لم يبق إلا الصعق في الصور؟

تاريخ الصراع:

بدأت المواجهة بين الشرق والغرب منذ فجر التاريخ الإنساني المدون,الذي تتنازعه اليوم أراضي الرافدين وشواطئ البحر المتوسط حيث ستدور هناك أكثر حوادث التاريخ لهباً وعنفواناً.
شهد الشرق قيام سلسلة متتابعة من الحضارات تعود إلى نحو ستين قرناً قبل الميلاد من عيلام وسومر في العراق إلى مصر إلى إيبلا في الشام إلى الوثبة الفارسية في طيسفون,لم تخل من مناوشات بين الشرق والغرب,ولكن لم تسجل مواجهة حقيقية بين الشرق والغرب حتى القرن الرابع قبل الميلاد.
بدأت المواجهة بين الشرق والغرب مع خروج الإسكندر الأكبر من معاقل اليونان التقليدية في البلقان صوب الشرق، حيث قدر للجواد الذي يركبه الاسكندر أن يجتاز مضيق الدردنيل ويتحرك صوب سحر الشرق الآسر، وهناك يمضي من أفق إلى أفق فيجتاح آسيا الصغرى وبلاد الشام ثم السهول الإيرانية، فيحطم أمجاد الفرس ويمزق دولة ساسان، ثم يوغل في

الشرق فيروي خيله من نهر جيحون ويجتاز بلاد ما وراء النهر، حيث يبلغ سحراً آخر يحمله إلى القارة الهندية فيدك ما واجهه من الممالك، ويبلغ في النهاية إمبراطورية الصين حيث لم يعد ثمة بعدها شيء يمكن أن يباهي بإسقاطه.
وحين عاد الاسكندر إلى أثينا ليبتهج بنصره شاباً غضاً، أدرك إنه ليس إلا دورة واحدة من دورات الحياة، وان تبدل المقادير ماضي إلى غابر لا يمكن أن تتوقف عند طموح الاسكندر.
لم يطل المشهد حتى انبعثت شعوب آسيا الراقدة تضرب في جيوش الاسكندر كل وجه، وتحيل لهيبهم إلى رماد حيث يمزقون إلى بطالسة وسلوقيين، وتبرز مشاهد متعاقبة من الأكاسرة الجبارين، تطرق أبواب أوربا من الأناضول في هبة الشرق العارمة، في صد أطماع الغرب.
بعد أقل من قرن يضرب هانيبعل بسياطه الموجعة في قلب الحواضر الأوربية، ويسجل غضب الجنوب على الشمال، وتثأر قرطاجة للإسكندرية ويشتعل المتوسط بنار الكراهية من جديد.
في غمرة هذا الصراع كان هناك مشروع آخر يتم إعداده في روما، الإيطالية التي تتدلى في قلب البحر المتوسط في إرادة جادة للمواجهة، تحت عنوان الإمبراطورية الرومانية والتي ستصبح المقدسة فيما بعد وتنطلق الأطماع الرومانية من جديد فتلتهب البلاد المتشاطئة في البحر المتوسط، في القرن الأول قبل الميلاد، ويمضي المشروع الروماني إلى أم الدنيا مصر ثم يرسم ملامح وجود جديد على طول شواطئ المتوسط، ليصبح بحيرة رومية، ثم يجتاح بلاد الشام ويصل إلى مواجهة مباشرة مع الحضارة الساسانية الفارسية، حيث سيبدأ صراع ساخن سيستمر سبع قرون.
مع وصول الفتح الإسلامي إلى بلاد الشام في القرن السابع الهجري كان الشرق يستعيد عافيته ليقوم بالمواجهة مع الغرب وعندما رحل القيصر من أرض الشام كان يعلم تماماً أنه يرحل رحيلاً لا عودة عنه، وان فصلًا جديداً من تاريخ العالم يكتبه هذا الفتح الإسلامي الطامح، الذي باكر إلى محاولة دك أسوار القسطنطينية مؤكدا على روح المواجهة.
تمضي قرون خمسة وتبوء محاولات الغرب البائسة في اختراق آسيا بالفشل وتتحطم أوهامه عند مضيق الدردنيل، حيث يقوم الرباط على ثغور كيليكية بلجم الأطماع الأوربية في الشرق الإسلامي، حتى تنفجر أوربا بالأوهام الصليبية عندما يمضي بطرس الناسك في القرن الحادي عشر برسالة أوربان الثاني ليحشد أوربا في جحافل الحملات المسعورة لأطماع الفرنجة تحت عنوان الحروب الصليبية، وتنشأ مواجهة أخرى بين الشرق والغرب استمرت مائتي عام ركز فيها الغرب راياته على إمارات كثيرة في الشرق من الرها إلى دمياط، ولكن الشرق انتفض مرة أخرى وما بين صلاح الدين والملك الكامل والظاهر بيبرس وصلت الرسالة إلى أرض الأناضول ليترجمها محمد الفاتح بفتح القسطنطينية عام 1453 م حيث ستبدأ جولة أخرى من صراع ستكون هذه المرة في عمق الأرض الأوربية، وسيسمعها الغرب بوضوح على أسوار فينا في قلب القارة الأوربية.
بعد أقل من قرنين استأنفت أوربا تاريخ الصراع عندما تفجرت الثورة الملاحية من الجزيرة الايبيرية وجرفت في طريقها الأندلس لتمتد شريطاً ساحلياً يطوق العالم الإسلامي من طنجة إلى جزر سيلان عبر رأس الرجاء الصالح ومن ثم إلى أرخبيل الملايو، ويتبعها عن قرب

وصول فرنسا إلى سواحل مصر أيام نابليون الذي افتتح الحقبة الاستعمارية الجديدة في الشرق العربي.
وفي القرن التاسع عشر تتوثب الجيوش الأوربية لاقتسام ما تبقى من العالم الإسلامي المريض في حركة استعمارية لا تتوقف حتى تدك العواصم واحدة فواحدة.
مرة أخرى يقول الشرق كلمته عندما تبعث حركات التحرر وتتمكن من تحقيق استقلال الشرق ولكن في خريطة جديدة هذه المرة، لا يظهر فيها شرق متحد، ولكنه يختزن آمال الوحدة والجماعة.
يشهد القرن العشرون حربان عالميتان، تنجليان عن رسم صورة جديدة تؤكد كل يوم أن حل المنازعات عن طريق الحروب أصبح محرماً دولياً وأن على الشعوب أن تتعود الجلوس إلى موائد المفاوضات لتحقق أمانيها دون اللجوء إلى القوة، كيف سيكون مشهد العلاقة بين الشرق والغرب، هل ستستمر الحدود الدموية التي رسمتها الأطماع التاريخية بين شطري العالم ؟ أم سينصت الإنسان لصوت العقل ويدرك أن عصر الحروب المعمد بالدم ينبغي أن ينتهي ويحل محله عصر الحوار والتفاهم.
من المؤسف أن فلاسفة الموت يجدون في الأخبار كل يوم ما يذكي نظريتهم عن صدام الحضارات حيث يؤكدون إن السلام والحوار سخافة لا وجود لها في التاريخ وعلى الإنسان أن يمضي في خياره المجنون إلى مواجهة بالدم.
هل تعلم الإنسان من الماضي أن منطق الصراع الحضاري معناه استمرار الحياة في الجنون عبر جدلية البناء والتدمير العابثة الخائبة؟ وأن لغة القوة مهما كانت صارخة وقاهرة هي منطق مترنح في النهاية وان دور التاريخ لن تتوقف، (وتلك الأيام نداولها بين الناس والعاقبة للمتقين).

الحوار بالأباتشي:

أحياناً يبدو حوارك هذا واستعراضك للدرس التاريخي في غير معنى حين ترصد جانباً من موقف الآخر المصر على رسم حواره بصواريخ الحرب، المشهد يحملك بكل تأكيد على تصور خطورة المستقبل ويجعل عناءنا في الحوار العالمي محل شك وريبة. في مرحلة الإعداد الأمريكي للحرب على العراق سألني صديق: هل مازالت تؤمن بحوار الحضارات؟ في أجواء التوماهوك والكروز والاباتشي؟.

إنه صخب الحرب الذي يعصف في كل مكان، وسائل الإعلام مؤجرة بالكامل للحديث عن الحرب وتبعاتها حتى فنانو هوليود جعلوا من الأوسكار خلال حرب العراق موقفاً سياسياً صارخاً ضد الحرب حين وقف المخرج الأمريكي مايكل مور الذي حاز على جائزة أفضل فيلم وثائقي عن (بولينغ فور كولومبيات) وقال صارخا (نحن ضد الحرب سيد بوش عار عليك) وقال مور في وقت لاحق: يريدون أن نكون هناك في العراق فقط لان العراقيين يملكون ثاني أكبر احتياطي من النفط في العالم). والأمر نفسه تبناه عدد من فناني هوليود مثل بدرو مودفار الأسباني ومات ديمون وجيسي كالانغ، وبربارة ستريسند، وهي مواقف تمنينا لو أوتيها بعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو والعظمة من (حكام العرب) هذه الأيام!.

هذا الواقع الصارخ يطاردك اليوم في كل مسعى تحملك إليه أمانيك وآمالك وأنت تتطلع إلى رسالة حوار وتفاهم بين الشرق والغرب.

ماذا يمكنك أن تقول في هذه الأيام الرديئة؟ وهل أبقى لك المستر بوش شيئاً تحاور فيه أو تتحاور فيه؟

الخطاب الذي نحمله عادة إلى أوربا وأمريكا بضاعة واحدة، وهي الحديث عن حوار الحضارات ولقاء الديانات، في مواجهة الصيغة العدوانية السائدة وهي الحديث عن صدام الحضارات، كما عبر عنه صمويل هنتغتون أو بشكل أكثر وقاحة وتهوراً: الحرب الصليبية الجديدة كما عبر السيد بوش نفسه!!

يتعالى اليوم خطاب جريء في الوسط الثقافي العربي يطالب بإلغاء نشاطات الحوار والبحث عن سبل أكثر فاعلية في خدمة قضايانا في الداخل والخارج، على أساس أن الآخر الذي

سنمضي اليوم لمحاورته غير موجود بالمرة! وهو هذه الأيام سائل اللعاب للنفط العراقي ويعيش قلباً وقالباً مع الفرسان المارينز الحاملين شعلة(الانبثاق) الحضاري للنظام العالمي الجديد، وفق النمط الغادر الذي حققه في الماضي فرسان الكاوبوي الأمريكان مع أصحاب الأرض الأصليين من الهنود الحمر، وذلك بالغدر نفسه حسب ما تسمح به إمكاناتهم (الثقافية) من باتريوت وأباتشي وإف 16 ويخلق ما لا تعملون!
وددت لو أفعل، فكثير من المثقفين كسروا أقلامهم هذه الأيام الرديئة وراحوا يبحثون عن قاطرة يركبونها في موكب الشاعر اللبناني الكبير خليل حاوي الذي اختار أن يعبر بالرصاص عن إخفاق الأمة العربية عن حماية عاصمة عربية(لبيروت) في السادس من حزيران 1982 عقب الاجتياح وكانت آخر مقالاته إذن في صدره بالحبر الأحمر!
كانت كلمتي في جامعة فاكسهو في السويد خلال حرب العراق حول كلمة الجهاد، حيث تعتبر كلمة الجهاد هي المرادف المباشر لكلمة الإرهاب في القاموس السياسي الغربي هذه الأيام، وبصورة أكثر بجاحة فإن مارغريت تاتشر كتبت في مقال لها في الغارديان قبل عامين تطالب بالمواجهة العسكرية فوراً مع الإرهاب الإسلامي المسمى بالجهاد!! ولذلك فقد كانت القاعة حاشدة برجال الإعلام والصحافة وكان الانطباع السائد أن ثمة فرصة غير عادية لنستمع في السويد من أصولي سوري عن مشروعية الإرهاب وفق العقيدة الإسلامية!!

كفاح الرسول بين الحوار والجهاد:

المشهد واضح تماماً فنحن نفرق جيداً بين الكفاح المشروع والإرهاب الممنوع، ويمكن أن تقدم الأدلة الواضحة من السنة النبوية والقرآن التي تقطع أي شك في أن النبي الكريم كان احرص الناس على حقن الدماء وأن غزواته التي خاضها وهي في الحقيقة ستة فقط وليس كما هو سائد سبع وعشرون غزوة، حيث درج المؤرخون على إطلاق اسم غزوة على كل لقاء بين النبي وخصومه سواء حصل في قتال أو لم يحصل، أما الالتحام الذي جرى بينه وبين أعدائه فلم يكن في الواقع إلا الدفاع المشروع عن النفس، ومن العجيب أن هذا الدفاع المشروع عن النفس ظل حراماً على المسلمين خمسة عشر عاماً من عمر الإسلام، ولم يكن مسموحاً لهم حتى الدفاع المشروع عن النفس، وذلك في موقف فريد يعكس وعي النبي الكريم بالجانب السياسي والأصول الاجتماعية، فمن غير الوارد أن يخول الأفراد تحصيل حقوقهم بأيديهم عن طريق العنف، وذلك سينشأ منه كما قال غاندي: إن تطبيق قاعدة العين بالعين سيجعل الجميع عمياناً! وهو بالتأكيد يرسم ظلال شريعة الغاب، وهكذا فقد ظل استخدام القوة حراماً حتى في إطار الدفاع عن النفس إلى أن أسس النبي دولته وجيشه وعند ذلك شرع القتال، وباستعراض سريع لغزواته صلى الله عليه وسلم فإن الأيام التي حصل فيها التحام بين النبي وخصمائه لا تتعدى ستة أيام وهي تحديداً أيام بدر وأحد والمصطلق وخيبر وحنين، وهناك كلام عن يوم قريظة.

يوم بدر وقعت الغزوة عند ماء بدر وهو يبعد عن مكة أكثر من ثلاثمائة كيلومتر وقد سارت إليها قريش بخيلائها وجبروتها لمحاربة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، أما أحد فإنها وقعت في أرض المدينة حيث سارت قريش لمحاربة النبي الكريم أكثر من أربعمائة وعشرين كيلومتر، وفي الخندق فإن النبي الكريم حفر الخندق حول المدينة وهي مكيدة لم تكن تعرفها العرب في محاولة منه لحقن الدماء، ومع أن قريشاً ظلت تستفزه أربعين يوماً حول الخندق ولكنه لم يشأ أن يأذن بأي قطرة دم تراق هناك وظل صامتاً خلف خندقه!!

كان فرسان قريش وغطفان ينادونه من وراء الخندق: يا محمد ! أليس تزعم أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار؟ فاخرج إلينا ! ومن كلام عمرو بن ود العامري يومذاك:

ولقد بححت من النداء لجمعهم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المناجز موقف القرن المناجز

ومن كلام ابن الزبعرى:

شهرا وعشرا قاهرين محمدا وصحابه في الحرب خير صحاب
لولا الخنادق غادروا من جمعهم قتلى لطير سغب وذئاب

ومن كلام كعب بن زهير:

فأحجرناهم شهراً كريتاً وكنا فوقهم كالقاهرينـا
نراوحهم ونغدو كل يوم عليهم بالسلاح مدججينا
فلولا خندق كانوا عليهم لدمرنا عليهم اجمعينا
ولكن حال دونهم وكانوا به من خوفنا متعوذينا

وهكذا كانت رغبته العارمة بالسلم تمسك عليه أنفاسه فلا يستجيب لاستفزازهم في شيء.

الشواهد من حياته وجهاده كثيرة، كان ذلك يثير استغرابهم ودهشتهم، أين هو إذن ذلك النبي الذي يرسمه لنا الإعلام الغربي على هيئة السفاح المتعطش للدماء، لا ينزل عن حصانه، ولا ينثلم سيفه، ولا يرحم أعداءه؟، كما يقدمها لنا جيري فالويل وبات روبنسون وجيمي سواغارت وجون أشكروفت من رجال الإعلام والسياسة في الغرب؟؟

ولكن أليست مشكلة أن تتحدث عن تشوفنا في الشرق للسلام في حين أن الغرب قادم بألويته ومتاعه وعناده في البر والبحر والجو ليواجه شعبنا في العراق، ويضرب في المستشفيات والأسواق، وفي قلب المدن وذلك تحت عنوان: تحرير الشعب العراقي!! لقد قلت لهم: كيف يمكنك أن تتحدث عن حرية شعب تقوم أنت بذبحه كل يوم؟ كيف يمكنك أن تدعي أنك تسعى لرفاهية شعب في حين أنك تمطره بالقنابل العنقودية وطائرات الأباتشي؟

إن هناك تأثيراً للأساطير الدينية التي أسست كياناً كاملاً على أرض فلسطين، وهي ماضية الآن في تأسيس ثقافة جديدة في أمريكا أنا لا أشك أبداً أن بوش المصلي الخاشع مسكون بهواجس هذه الأساطير، لقد تم إقناع الرئيس بوش بأنه الآن يذكر مع الرؤساء الأمريكيين مع كلينتون وكيندي وفورد، ولكن لديك فرصة أخرى أن تذكر مع الأنبياء!! مع داود وسليمان وعيسى وإبراهيم، لو تمكنت من إنجاز النبوءات التوراتية التي تبدأ من معركة هرمجدون الدامية على شواطئ الفرات وتنتهي في فلسطين، أنا لا أشك أن لهذه الأساطير تأثيراً في ذهن الرجل، وهنا أحيل إلى ما كتبه السيد فؤاد شعبان في كتابه: من أجل صهيون والذي تمكن من رسم ملامح الأساطير المؤسسة للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وهذه الأساطير بكل مرارة هي جزء من بواعث القرار الأمريكي على مستوى المنطقة!!

أيهما أخطر على الوجود الإنساني اليوم: ابن لادن الذي يعيش في شعاب طوران، ربما حليقاً متخفياً لم يعد يملك إلا خطباً ونداءات يحث فيها على الجهاد بين كل حين ومين، أم ذلك الكاوبوي المتعطش للدماء، المسكون بهواجس الغيب التوراتي، والذي يصرح جهاراً نهاراً أن الرب زاره في البيت الأبيض وأخبره أنه يقاتل معه في حربه على الإرهاب، ومن أجل الرب فإنه يدفع طاقات أمريكا الجبارة وأسلحتها الفتاكة، وناقلات طائراتها وحقيبتها النووية في اتجاه العدو المحتوم؟؟

هل مازال هناك معنى للحديث عن حوار الحضارات؟
إنها رسالة المثقف، لا يمكنك أن تخون مبادئك، مع أن الآخر يستفزك على ذلك كل يوم!!

المسلمون في الغرب حوار أم مواجهة؟

لا شك أن المواجهة مع الإسلام هي خيار مفضل لدى كثير من صانعي السياسة الأمريكية هذه الأيام، ويمتد ذلك ليشمل المواجهة مع الجالية الإسلامية في أمريكا، وهي التي تزيد اليوم عن تسعة ملايين في الولايات المتحدة فيهم عدد غير قليل من مواليد الولايات المتحدة، والذين لا يمكن الحديث عن خلفية وطنية لهم في غير أمريكا، ولا شك أن هذا الوجود أصبح اليوم خطراً يتهدد المشروع الصهيوني في أمريكا الهادف إلى جعل أمريكا قاعدة خلفية للمشروع الصهيوني، وهنا يتأكد دور المنظمات الإسلامية الواعية التي تتحمل المسؤولية عن تنظيم المشهد الإسلامي في الولايات المتحدة، وكيف يمكن تقديم المسلمين في أمريكا كشريك كامل في الحياة السياسية.

من المفيد هنا أن تدرك بعض المعالم الدقيقة عن رسالة الحفاظ على الوجود الإسلامي داخل القطار الحضاري الراكض بجنون!! والذي لا تفتأ تتطاير من نوافذه أوراق كثير من الأمم، وهو ما أحب أن أحدثك عنه من خلال تجربة منظمة الإسنا الإسلامية في أمريكا، وهي في الواقع من أنجح التجارب التي وفق إليها المسلمون في أمريكا، حيث تمكنت هذه المنظمة من طرح نفسها رابطة عامة للنشاط الإسلامي في أمريكا، تقبل الجميع من غير أن تفرض عليهم الخروج من مفاهيمهم وخياراتهم وهكذا فإنه ينضوي تحت اسم المنظمة عشرات التنظيمات الطلابية والاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، تعمل في مجالات شتى وتتفاوت منطلقاتها النظرية تفاوتاً شديداً ولكنها جميعاً: كلها في الهم شرق!!.

وفي المؤتمر السنوي الذي أقيم في شيكاغو حضر أكثر من سبعة وثلاثين ألفاً من المشاركين، وظهر الحضور الإسلامي لافتاً بحيث كانت مشاركة المسلمين فيه تعكس أجلى صورة لاتحادهم وهو ما يؤمل أن يكون مظهر وعيهم في الأيام القادمة.

كان الجو متحفزاً لجهة الفتاوى التي تصل إلى القوم بين الحين والآخر من مدن متفرقة في العالم الإسلامي وهي في الأعم الأغلب فتاوى غائبة عن هم القوم تنظر إلى جانب من المسألة من غير وعي بجوانبها الأخرى، وربما كان من أكثرها إلحاحا فتوى تحريم الإقامة بين ظهراني المشركين واعتبار تحصيل الجنسية الأجنبية حراماً شرعاً لأنه عنوان الولاء للكافر!!

واضح أن الهدف الذي يرمي إليه هؤلاء هو هدف شريف وطيب، وهو جهد يبذلونه في مقاومة التفريط الذي تقوم به حكومات العالم الثالث من (تطفيش) الكفاءات التي ينظر إليها بوليسياً بأنها مصادر (وجع الرأس)!! وأنها بخروجها من الأرض العربية تريح وتستريح.

وهكذا فإن هذه الفتوى تهدف إلى تحقيق هجرة معاكسة وتدعو أبناء العالم الإسلامي أن يقدموا كفاءاتهم ومواهبهم في بلدانهم التي لها عليهم الحق الأكبر.

ولكن المسألة يا سيدي ليست بهذه البساطة فالمسلمون والعرب في عواصم الغرب أصبحوا في كثير من الأحيان جزءاً من النسيج الاجتماعي لتلك البلاد ولديهم العديد من المشاريع الطموحة التي تعود على البلاد والعباد بالخير والبركة.

قلت في كلمتي إنني أرفض أولاً تسمية المسلمين هنا بالغرباء، هذه الأرض أرض الله، ونحن عباده، ولقد كتب في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباده الصالحون، وما في أمريكا من عرق أخضر إلا وهو يسبح بحمد الله، والمؤمن أولى بذلك كله من غيره، ثم إن أمريكا إنما بنيت بزنود إخواننا من الأفارقة السود الذين هم في الواقع أبناء العالم الإسلامي وقد تم تحت السلاح إرغامهم على التخلي عن هوياتهم ودينهم.

إن التعميم في أي فتوى يقود إلى نتائج مدمرة ولابد من وضع أي خيار فقهي نطمح إليه في حدود الزمان والمكان الذي وردا فيه، كم كان المسلمون رائعين عندما صرحوا بهذه الحقيقة ليست في إطار الاجتهاد البشري فحسب بل في إطار النص المقدس نفسه، البلقيني على سبيل المثال يصرح تصريحاً ذا دلالة إذ يقول: ما من آية في القرآن إلا وقد طرأ عليها تخصيص أو تقييد ثم يجزم في ثقة بأن أية واحدة في القرآن لم يطرأ عليها مخصص وهي قوله تعالى: إن الله بكل شيء عليم، وبين قوسين نشير هنا إلى تحفظ المعتزلة على إطلاق هذه الآية أيضا .

وهكذا فإن طرح وجوب الرحيل من أرض(الكافر) حلاً مطلقاً للمسلمين في الغرب سيكون له بكل تأكيد نتائج مدمرة، ففي أمريكا على سبيل المثال ثمة تسعة ملايين مسلم، منهم أكثر من أربعة ملايين ولدوا في أمريكا فهل من المصلحة هؤلاء رعايا من الدرجة الثانية دون أدنى فاعلية في المجتمع الأمريكي؟ يتهددهم الترحيل عند كل ظرف يلجئون إليه؟

ثم ما هذه العودة التي يتحدثون عنها؟ إلى أين سيعود المسلم الذي ولد في أمريكا؟ وإلى أين سيعود المهاجر القادم من الهند أو سريلانكا؟ وحتى القادم من لبنان أو العراق ؟ وهل نظن أن العودة ستكون كما كانت أيام النبي الكريم ؟

من المسلمين من يجب أن يعود وأقامته في أمريكا حرام وهؤلاء كثيرون يذوبون في الكيان الغربي ويتحللون من انتمائهم ومنهم من يجب أن يبقى وعودته حرام، هل نقول لهؤلاء الذين يعقدون هذه المؤتمرات ويجمعون عليها الناس أن عليكم أن ترحلوا؟! ومن المسلمين من يجب أن يهاجر إلى الغرب ليؤدي الرسالة التي أؤتمن عليها وهكذا فإن الحكم الشرعي متعدد بحسب الحال التي يكون عليها كل فرد من الأمة في الموقع الذي يكون فيه أكثر فائدة لأرضه ودينه.

مسلم أمريكي يقيم في واشنطن يتمرد على المظالم الأمريكية ويقاومها ويدافع عن كرامة أمته ومجدها، هو أشد فاعلية واثراً من آخر يقيم في مكة ثم لا يجد ما يقدمه لأمته من أزر وعون.

أن تحميل المسلم وزر الإقامة ليعيش هناك بعقدة الذنب سيؤدي إلى إضعاف فاعليته في حياة العامة وبالتالي سيقدمه للمجتمع الغربي إنساناً مفرغاً من الحس الوطني وهذا موقف جد خطير قد يعصف بسائر الآمال التي يبتغيها المسلمون في إقامة حياة حرة كريمة في خضم هذا العالم المادي الهائج.

تشير التوقعات التي قدمها باحثون إحصائيون في مؤتمر الإسنا إلى أنه إذا استمر النمو الإسلامي الذي شهدته أمريكا خلال السنوات العشر الفائتة فان عدد المسلمين عام 2025 م سيبلغ 50 مليون، أمر تسارع النمو الإسلامي في أمريكا واضح لا يحتاج إلى تدليل وقد صرح الرئيس كلينتون ذلك خلال حفل مجاملة أقامه للمسلمين في حديقة البيت الأبيض في عيد الفطر 1420هجرية.

والمسلمون في أمريكا طبقة مثقفة واعية قدم الدكتور إبراهيم أحمد أستاذ الإحصاء بجامعة ايلينوي إحصاءاً دقيقاً في ذلك إذ يبلغ عدد الحاصلين على الدكتوراه من الأمريكيين المسيحيين 8 بالألف فيما يبلغ عدد الحاصلين على الدكتوراه من اليهود 18 بالألف ولكن النسبة ترتفع بين المسلمين إلى 31 بالألف وهي نتيجة طبيعة نظراً لأن العرب والمسلمين هاجروا أصلا للدراسة والمعرفة، وهم في الغالب شباب طامحون أسس غالبهم أسراً صغيرة تحمل الطموح ذاته، وأمامهم إذن فرص حقيقية للنمو والتفوق، في حين أن المسيحيين مثلاً يشكلون النسيج الطبيعي للمجتمع الأمريكي وفيهم الكبار والصغار ، ومختلف الأعمار وأهل الأرياف مما يجعلهم في الحياة الأكاديمية أقل من المسلمين نسبياً، بالطبع كمجموع عام المسيحيون أكبر بكثير، ولكن يمكن القول بثقة إن عدد المسلمين في الحياة الأكاديمية الأمريكية أكبر بكثير من عدد اليهود وقد يبلغون ضعفهم، ولكن هل يمكن القول إن المسلمين يشكلون نفوذاً في الحياة الأكاديمية يتناسب مع عددهم؟؟ حتى الآن بالطبع لا ، ولكن كل الإمكانيات تشير إلى أن بناء منهج واع لحراك المسلمين في الأكاديميا سيجعلهم نفوذاً حقيقياً لا يستهان به في أمريكا .

والسؤال الآن إذا كان ذلك كذلك فهل سيجد المسلمون السبيل لجمع كلمتهم ليحققوا دوراً أكثر فاعلية في الحياة العامة ؟

يمكنني أن أقول إن النفوذ الإسلامي والعربي القادم إنما هو في حقل الأكاديمية الذي نستجمع فيه عدة معطيات موضوعية للتفوق والتأثير.

حتى الآن لا مقارنة بين أثر اللوبي الصهيوني والأثر الإسلامي في أمريكا ولكن من الذي يستطيع أن يزعم أن هذه الصورة باقية إلى الأبد.

حوار الحضارات.... شراب أم سراب؟

في خضم التصارع الدولي الذي يتفاقم كل يوم تحت عنوان الحرب على الإرهاب ، فإن الإسلام يبدو كل يوم أكثر قرباً من دريئة الصراع كهدف غير معلن ولكنه يرسم في الواقع ملامح توجه الصراع وغاياته ومراميه. وهنا فإنني أعتقد أن من واجب العالم الإسلامي أن يتعاطى مع هذه المسألة بجدية، وأمام توافر المبررات فهل يتعين القول أن الحرب على الإسلام قادمة وهل من مصلحة الإسلام أن يوافق على خوض حرب كهذه وهل هي حرب مفروضة لا خيار له في خوضها؟؟ أسئلة كثيرة تختلف اليوم الإجابات عليها اختلافاً حاداً، ويبدو أن الخطاب الأكثر شعبية في الإعلام العربي اليوم هو النفخ في كير المواجهة، وهو الكير الذي يوقده الجنود الأمريكان بكل إصرار كلما دخلوا مسجداً في الفلوجة أو قصفوا مشفى في الرمادي وهو المشهد الذي أصبح مادة إعلامية شبه يومية للفضائيات العربية المتلهفة لسماع خبر الدم.

ولكنني لا أكتمك أنني لا أميل إلى الانخراط في هذا الوهم، ولا زال لدي يقين كبير بأن الحوار هو لغة الحياة ونمط المستقبل، وأننا معنيون أولاً وآخراً بإحياء رسالة الحوار هذه، وأن المستقبل لا بد أن يكون منطق حوار أو أنه لن يكون!!.

من وجهة نظري لا يمكن افتراض الشر المطلق في الآخر أياً كان هذا الآخر، حتى الإدارة الأمريكية نفسها، وقبل ذلك يجب القول أن هناك أصدقاء كثير للخير والسلام في العالم، نحن لن ننسى المدن الثمانمائة التي ملئت شوارعها بالناس وهم يتظاهرون ضد الحرب على العراق .هذه المدن يقع أكثر من خمسمائة منها في العالم الغربي، وهذا يعد مؤشراً واضحاً على أننا نمتلك أصدقاء للخير والمحبة في العالم.

إنني أدعو إلى المراهنة على هؤلاء واعتقد أن لدينا الكثير مما يمكن أن نفعله، وعلينا أن نذكر العالم أن منطق الإسلام هو الحوار والتعاون وليس الصراع والمواجهة، والإسلام مشتق من السلم والله اسمه السلام والإسلام دين السلام والجنة دار السلام وتحية المسلمين في الأرض السلام، ولا شك أن هذا الرصيد الأدبي يوفر أرضية كافية لبدء حوار إيجابي بناء مع القوى المحبة للخير في العالم.

وبعيداً عن المنطق الخطابي هذا فإن علينا أن نتذكر حكاية الصدام والحوار في التماس الأممي المعاصر، فقد كانت نظرية صدام الحضارات كما هو معروف مشروعاً أمريكياً وقد اكتسب تقرير هنتنغتون أهميته من موقع الرجل كخبير في السياسة الأمنية الأمريكية وقد اعتمد البنتاغون هذا التقرير وثيقة استراتيجية حظيت باهتمام كبير، وحين تداولته دوائر القرار في أمريكا على أساس أن المواجهة بين الحضارات أمر محتوم، وأن الإسلام هو أكثر الأهداف المحتملة لهذا الصراع فإن الأمة الإسلامية قد قامت بمواجهته بشجاعة وبسالة من

قبل الأمة الإسلامية عندما أقرت منظمة المؤتمر الإسلامي الدعوة إلى مشروع حوار الحضارات. وعندما حمل الرئيس خاتمي هذا المشروع إلى الأمم المتحدة عام 2001 م بوصفه رئيساً لمنظمة المؤتمر الإسلامي، كان يعكس تعاطياً إيجابياً حكيماً مع تطور الأحداث وبالفعل فقد سميَ عام (حوار الحضارات) بناءاً على الاقتراح الإسلامي.
من الغريب أن يوافق الأمريكيون على مصطلح حرب الحضارات أو صدام الحضارات، فالحضارات في الواقع لا تتصادم ولا تتصارع، بل تتكامل وتتواصل، يقع الصدام عادة بين الحضارة والتخلف، بين الحضارة والجهل، بين الظلام والنور، ولكن ليس بين الحضارة والحضارة أو بين النور والنور أو بين العلم والعلم.

حضارات أم حضارة إنسانية واحدة؟

أنا شخصياً اعتقد أن مصطلح حوار الحضارات نفسه ليس كافياً بالمرة للتعبير عن روح الإسلام في التلاقي مع الآخر، بل يجب الحديث عن وحدة الحضارة الإنسانية؛ لا توجد حضارة تبدأ من الصفر كل حضارة تؤسس على من سبقها، وتماماً كما كنا نجد في حضارتنا الإسلامية تأثير جالينوس وابقراط في الطب، نجد اليوم تأثير ابن سينا والفارابي في الحضارة الغربية، وعندما نتعاطى مع الحاسوب يجب أن لا ننسى الدور المهم الذي لعبه ابن الهيثم في إصلاح علم المناظير، وبدورنا عندما كنا نقوم بريادة الحضارة كنا نؤسس على من سبقنا من رواد الحضارات السابقة، وبإمكانك أن تدرك تأثر إقليدس وفيثاغورس في هندسة بناء الأموي، وطب أبقراط وخبرة جالينوس في بيمارستانات بغداد فهذه هي حركة الحياة الدائبة التي يؤسس بعضها على بعض ويرتشف بعضها من معين بعض.
ربما كان من أوضح الأمثلة على ذلك أن القرآن الكريم تحدث عن رسالة النبي الكريم في أربعة عشر موضعاً بصيغة مصدقاً لما بين يديه، ولم يقل أبداً مبطلاً أو ملغياً لما بين يديه أو ناسفاً لما بين يديه، بل إنه عبر بأوضح عبارة بقوله: مثلي ومثل النبيين من قبلي كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها إلا موضع لبنة فكان الناس إذا مروا بتلك اللبنة يقولون ما أجمل هذه الدار لولا موضع للبنة فكنت أن تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين، إنه لم يقل أنا البناء كله وإنما قال أنا لبنة في البناء الكبير.
إن احترام إنجاز الآخرين والبناء عليه هو هدي الأنبياء وهو في الواقع مرتكز الموقف الإسلامي في حواره مع أهل الكتاب، أصحاب الحضارة الدينية السابقة على الإسلام، وهو موقف احترام كان من أقرب مظاهره أن المسلمين ظلوا يصلون نحو نصف عمر الرسالة صوب بيت المقدس قبلة أهل الكتاب في إشارة واضحة للتكامل بين رسالات الأنبياء وإخائهم.
إن الغرب أصبح مع التطور الحضاري أكثر وعياً باستحقاق السلام الدولي، وهو يوظف هذه العلاقة بكفاءة في علاقاته الآخرين، لقد تعلم الغرب من قانون الحضارة؛ في الماضي عندما قال هتلر: (ألمانيا فوق الجميع) أشعل حرباً عالمية ولكن عندما غيرت ألمانيا منطقها هذا، وأعلنت (ألمانيا مثل الجميع) قامت الوحدة الأوربية، وتحقق أعظم إنجاز وحدوي في العالم في مطلع القرن الحادي والعشرين.

الحوار... من أجل نقد الذات

إن فتح الحوار مع الذات في البلاد العربية قد جاء متأخراً ولكن أن تأتي متأخراً خير من أن لا تأتي أبداً، على أنه في بعض البلاد العربية فإن النقد الذاتي لم يأت بعد وأخشى أن أقول إنه ليس على وشك الوصول بعد، أو قل إن الهوامش التي تفتح لهذا الحوار لا تزال مسيجة بسياج من شروط الاستبداد التي تستهلك الحوار وتدفع عناءه في غير اتجاهه الذي ينبغي أن يمضي فيه.

في سوريا أطلقت قوى سياسية متعددة آفاق حوار داخلي، عبر سلسلة منتديات وأنشطة حزبية غير مرخصة ولكن الأهم من ذلك كله هو ما أطلقته القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي عبر سلسلة حوارات فتحت باباً للجدل والحوار لم يكن مألوفاً من قبل، وقد حظي الحوار الإسلامي القومي بأكبر نصيب من الاهتمام وشاركت فيه مع السيدين عبد الحافظ نعمان ومعن بشور، واستمر قرابة ثلاث ساعات وكان في الواقع حواراً صاخباً، ولكنه من وجهة نظري قد تكون أكثر خطوات الحوار الجاد التي انعقدت في سوريا لنقد الذات.

نشرت صحيفة البعث الرسمية التي تصدر عن القيادة القطرية لحزب البعث محاضرتي التي ألقيتها بدار البعث والتي اتسمت بنقد قاس ولاذع لمنهج الفكر القومي البعثي وقد أدرجت فيها ثلاث نقاط وهي: موقف البعث من الدين، وموقفه من احتكار السلطة، ثم موقفه من الأقليات؛ ومع أن هذا النقد القاسي جوبه برد غاضب يعكس دهشة المشاركين من فتح حوار صادم بهذا المستوى، ولكنه يجعلك تشعر بأن هناك تطورات ديمقراطية في البلاد، إننا نمارس النقد حتى في المسائل الكبيرة، وهو ما لم يكن متاحاً إلى عهد قريب.

ولكن هل تم فتح الحوار بالجدية نفسها مع الغربيين، وهل تمكنا من تقديم أنفسنا للعالم كمجتمعات تنشط في الحوار الديمقراطي على الوجه الذي يحب الآخرون أن يسمعوه، للأسف إن صورتنا في الغرب ليست كذلك، أن النواب الأمريكيين يصوتون ضد بلادي على أساس خلفيات غير دقيقة، إنهم يتصورون أننا هنا نعيش في نفس ظروف صدام حسين مع أن المشهد ليس كذلك ؛إنني متأسف أنهم يرسمون مشهدنا في الغرب بعكس ما هو واقع ،ثم تؤخذ القرارات على أساس ذلك، وأشعر بمرارة من غيابنا عن مواقع التأثير.

إننا نراهن على أصدقائنا ولكن من دون أن نفعل شيئاً ونترك المشهد كما لو كنا نحن متفرجين، هذه المراهنة غبية، الرهان الصحيح هو أن تمارس دوراً في التأثير، لذلك أنا أعتبر أن رهاننا على الأصدقاء في الغرب هو الاتجاه الصحيح الذي يجب أن نسعى إليه ولكن ليس رهان المتفرجين، وإنما رهان من هو جزء من المشهد، هناك ثمانمائة مدينة خرجت في مظاهرات ضد الحرب، كذلك فإن أوربا -باستثناء بريطانيا وإسبانيا- وقفت موقفاً طيباً في رفض الحرب، وهكذا فإن شاطئنا الشمالي من البحر المتوسط كان في معظمه قبل الحرب رافضاً لها وهو الآن أشد رفضاً، ولكن نحن نقرأ ذلك كله من دون أن تكون لدينا القدرة والكفاءة للتواصل والتنسيق مع هؤلاء الأصدقاء، وعلي أن أقول إن مواقفهم المعتدلة لم تكن أبداً بسبب من حسن إدارتنا للعلاقات العامة أو خبرتنا في اصطناع الأصدقاء، وإنما كانت بكل براءة بسبب عدالة قضيتنا، وبسبب صفاء نفوسهم وشجاعتهم حتى رفضوا اللحاق

بالهوى الأمريكي ولو تضررت بذلك مصالحهم، إننا باختصار لا نفعل شيئاً من أجل التواصل مع أصدقائنا.

جمهور الحوار يفاجئ العالم

دعني اضرب لك مثالاً آخر في الإطار الثقافي، في يوم 1/1 /2000 ، قام السيد بيل غيتس أغنى رجل في العالم وصاحب مايكروسوفت بنشر سؤال على موقعه على الإنترنت msnbc, وكان السؤال كالتالي: من هو أهم رجل في التاريخ ؟، استمر السؤال من 2000/1/1 إلى 2001/4/1 أي ستة عشر شهراً، ومع أن السؤال عن أهم رجل ولكن لا يمكنك تجاوز الدلالة التبجيلية في إثارة هكذا سؤال، وهنا بوسعك أن تتصور كم من الزوار يزورون موقع بيل غيتس خلال ستة عشر شهراً، سوف تتحدث عن الملايين الذين يمثلون نخبة المثقفين في العالم من غير العرب والمسلمين، خاصة أننا نتحدث عن الإنترنت قبل خمس سنوات حيث لم يكن هناك إنترنت في كثير من البلاد العربية، والسؤال طبعاً في موقع إعلامي أمريكي وباللغة الإنكليزية ولا يوجد أي فرصة لاقتحامه عربياً أو إسلاميا ؛وكانت نتيجة التصويت بعد ستة عشر شهراً مذهلة بكل المقاييس، وهي تكشف لك عن حجم الإنصاف والاعتراف بالنبي الكريم والثقافة العربية والإسلامية لدى مثقفي الأرض!! فالذين قالوا أن أهم رجل في التاريخ هو موسى كانوا 1% ,الذين قالوا بوذا 1% ,و الذين قالوا جوزيف سميث 2% ,والذين قالوا مارتن لوثر كانوا 1% ,والذين قالوا الأم تيريزا كانوا 2% ,والذين قالوا جون بول السادس كانوا 1% ,والذين قالوا السيد المسيح كانوا 9% في حين أن 83% قالوا أن أعظم رجل في التاريخ هو محمد!! وظل هذا الرقم يتصاعد إلى أن بلغ في 2001/4/1 89% بالطبع لا يمكن أن يزاود أحد على بيل غيتس وموقعه الإعلامي الذي لا يوجد له أي روابط أو مصالح مباشرة في العالم الإسلامي، على كل حال سقت هذا المثال لأقول أن أصدقاءنا كثيرون، وعلينا أن نبحث عنهم بالذات في الآفاق المعنية بالثقافة والمعرفة في العالم.

لا يوجد بالطبع أي سبب لتقديم هذه النتيجة الإحصائية بهذه الصورة إلا وجود تيار غير قليل في المجتمع الغربي يمكن أن يكون وفياً لقضايانا، ويمكن أن نفتح معه حواراً جدياً للوصول إلى المشترك الإنساني والحديث عن عدالة قضيتنا، وهو الحوار الذي لا ينبغي أن يقتصر على الجانب التبشيري بل قل يجب أن يتجنبه -مبدئياً على الأقل-.

إن قناعتي بوجود تيار كبير في المجتمعات الغربية من الأصدقاء ناشئ في المقام الأول من قناعتي بأن الله خلق العالم بيديه وأنه ماض إلى نهاية سعيدة، وهو موقف اعتقادي في المقام الأول، أشعر بالأسى بالطبع للروايات التي حملها لنا التراث، البخاري تحديداً وفيها أن أهل النار يبلغون 999 بالألف من أهل الجنة، وأشعر بالأسى أكثر حينما أجد أن هذه التصورات تحظى بموافقة معظم كتاب التراث والمشتغلين فيه على أساس من القول بعصمة ما في البخاري، ولا شك أن ذهنية هلاك الكثرة الساحقة من الخلق سيخلق حالاً مستمرة من التوتر والريبة بين المسلم والغرب بل قل بين المسلم والعالم كله، وبالتالي سينشئ جيلاً غاضباً من المشهد الإنساني المحيط به فإذا كان الله الرحيم لا يرى في هذا الآخر إلا حطب جهنم فما الذي يدفعني إذن إلى الحوار والتعاون والتعايش مع تشكيلات المجتمع البشري المختلفة التي لا تبدو وفق هذه الرؤية التراثية إلا مشروعاً جهنمياً حقت عليه كلمة الله وأنه سيركم في

جهنم حتى تقول النار إط إط، وبوسعك أن تتصور الجيل الناشئ في ثقافة كهذه كيف يمكن أن يفتح حواراً حقيقياً مع الثقافات الأخرى؟ أو كيف يمكنه على الأقل أن يتعايش معها؟ وهنا يمكن أن نفهم كيف يتم بسهولة تكوين تيارات غاضبة ناقمة يتلقفها تيار التشدد الذي يملأ فضاء المجتمعات الإسلامية وقوداً للتطرف والعنف.

لدي مناقشة أخرى لهذه الفكرة، لست أدري لماذا تحظى أرقام 999 و 99 فاصلة تسعة بشعبية في تعاطينا للمسائل، وكيف يتسنى الحكم على قضايا تتجرد في صخب الجدل الدولي تيارات واضحة متمايزة بهذه الطريقة الإقصائية الإلغائية؟ التي لا ترى في الآخر إلا 0.001% محض خيط وهم على الرغم من أن حضوره ومشاركته جزء لا يتجزأ من الحراك الثقافي والاجتماعي في الحياة.

الحوار...لأن الخلق عيال الله

والمسألة من جانب آخر ذات مساس مباشر بالعقيدة، فالإيمان بعدالة الله وحكمته تقتضي أن يكون مشروعه في الأرض ناجحاً حكيماً، وتقتضي أن تكون سيرورة السعي البشري في الأرض ماضية إلى نهاية سعيدة، فهو قد أحسن إلى عباده في الخلق، وأظهر حكمته وعدالته في العالم، ولم يخلق الوجود عبثاً، وهو الحكيم العليم، ألا يعلم من خلق وهم اللطيف الخبير، ولكل خلق حكمة ولكن لا تعلمون، ولكن ذلك كله يتبدد أمام الفشل الذريع والنتائج الكارثية التي تقدم تراثياً من خلال رقم محدد يبلغ 999 بالألف!! وهذا التناقض المريع لا يمكن فهمه إلا من خلال رد أحد من طرفي النقيض هنا، وبالطبع فإنني أفضل أن يكون الخطأ في رواية التراث على أن يكون في صلب الإيمان بالله في عدالته وحكمته ورحمته، خاصة أن الحجج التي يتم تقديمها عادة لتأويل هذا التناقض تصرفك إلى تأويلات غيبية تتصل بيأجوج ومأجوج وهي لا تعالج شيئاً من القضية الصارخة أمامك والمطروحة بأكشف مظاهر الحدة أمام الجيل الجديد.

لا يبالي التفكير المادي أن يقول لا إله والحياة مادة والخلق عبث، ولا يبالي بعدئذ برسم المشهد النهائي للحياة انتصاراً لله أم للشيطان، للخير أم للشر، ولا يرسم دراماه عادة على أساس انتصار العدالة الحتمي وبشر القاتل بالقتل ولو بعد حين، وبشر الزاني بالفقر ولو بعد حين، بل إنه يرسم ملامح الحياة عادة في انتصار الخبث والدهاء وانسحاق الطيبة والخير، وبينما تنتهي الدراما هنا في الشرق بدخول المجرم السجن وانتصار القيم والحب والجمال، فإن الدراما الملتهبة في هوليوود عادة ما تنتهي بمصرع الشرطي وتضرجه في دمه في حين أن القاتل المحتال الغدار يتأبط ذراع عشيقته يشرع سيجاره ثم يمضي إلى فجور جديد.

حوارات في الكنيسة الكريستالية

وجهت دعوة للسيد وليم بيكر وهو سياسي أمريكي صديق لقضايانا والذي أصدر كتاباً بعنوان (المشترك أكثر مما تعتقد) يتحدث فيه عن المشترك بين الإسلام والمسيحية كما أصدر كتاباً آخر إسمه (سرقة وطن) يتحدث فيه عن سرقة فلسطين ,لقد تحدثت مطولاً عن هذا السياسي الأمريكي الذي يقيم في لوس أنجلوس والذي يعمل في إطار الكنيسة الكرستالية وينشط في إطار الحوار الإسلامي المسيحي، وفي إطار عدالة القضية. عندما كتبت مقالاتي عن هذا السياسي فوجئت بأسئلة عجيبة جداً وهي: ما هو المبرر لسياسي أمريكي أن يقدم

على هذا الموقف من الإنصاف لا بد أن في الأمر سراً ؟ وفي الواقع إن هذا السؤال نفسه يجعلك في موقع يستفزك على إعادة الوعي بالأشياء، أنه لا يسأل هذا السؤال إلا من هو مرتاب في عدالة قضيته أو من هو مرتاب في فطرة الإنسان، كان ينبغي أن يكون السؤال لماذا لم يكن كل الأمريكيين كذلك؟ وما الذي يجعل الإنسان الذي مسحه جبينه الله بيمينه، ونفخ فيه من روحه، ما الذي يجعله يختار سبيلاً غير سبيل العدالة والإنصاف؟ وهل قمنا بواجبنا في فتح الحوار البناء مع الآخر؟

حوار الاستشراق ..نهر يبحث عن مجرى

المسألة يمكن قراءتها من أفق آخر أكثر واقعية وعلمية وهو ظاهرة الاستشراق .
منذ ثلاثمائة عام والمستشرقون من أوروبا وأمريكا يأتون إلى الشرق دوافعهم كما يشير النقاد بعضها استعمارية وبعضها علمية وبعضها حضارية ، منذ هذا التاريخ ونحن نكتب عن الاستشراق ونراقبه ، ولكن موقعنا هو موقع المفعول به المنصوب الذي وقع عليه فعل الفاعل، لم نفعل شيئاً من أجل هذا الاستشراق الذي يتطلع إلى دراسة الشرق.حتى الآن ما تزال عواصم الاستشراق في باريس ولندن وميونخ وبرشلونة, ولم نتمكن من إحداث معهد واحد لرعاية المستشرقين في حين أن دولة الكيان الصهيوني أسست ثمانية معاهد لهذا الغرض.
عندما يعود أي مستشرق إلى أوربا بشهادة أو وثيقة من أي مدرسة في الشرق فإن هذا يشكل رصيداً مهماً لخبرته بل أن الجامعات الغربية والأقسام الموجودة فيها أي أقسام الدراسات الدينية, والثيولوجيا والدراسات العربية ودراسات الشرق الأوسط ,وأقسام الدراسات السامية واللغوية كلها تشترط على طلابها زيارة الشرق والانخراط في مدارسه وتحصيل شهادات تثبت أنهم درسوا في الشرق، كل هذا يجري ونحن متفرجون لأن البداهة تقتضي أن تبادر الدول العربية إلى تأسيس كليات للاستشراق واحتضان هؤلاء المستشرقين وبدل أن يعودوا بواقع 80% متحامل و20% منصف يمكننا أن نقلب المعادلة.
هناك ثمانية معاهد في إسرائيل تخرج سنوياً دفعات من المستشرقين من تل أبيب وحيفا ومراكز القرار الصهيوني؟ بالتأكيد سيكون هناك موقف غير متوازن تجاه قضايانا، لذلك أنا أعتقد أن الحوار مع الغرب لم يبدأ بعد. ذلك أن الصيغ التي تطرح اليوم للحوار مع الغرب هي صيغ بدائية جداً وغير فاعلة أنا أعتقد أن المطلوب هو مشروع وطني قومي حضاري ينطلق في إطار الجامعات وينشط في إطار المؤسسات الأكاديمية والإعلامية لذا فالرهان على الشرفاء في الغرب وفي العالم هو موقف حضاري وسيأتي بنتائج وليس كما يتصور البعض بأنه عقيم ولا يلد إلا الحسرة والخيبة.
نحن هنا في مركز الدراسات الإسلامية نقابل عشرات المستشرقين ممن يأتون إلى بلادنا لأن هذا جزء من تكوينهم الثقافي والعلمي ولكن أين يذهبون نظرياً لدينا مؤسستان في بلادنا .المؤسسة الأكاديمية الرسمية الجامعات والمؤسسة الدينية الأهلية ,والمعاهد الدينية،
فالجامعات لا يوجد فيها أي كلية للاستشراق أو أي معهد والمستشرق سيلتحق بكلية الآداب أو الشريعة لكنه سيدرس منهاجاً ليس له ويلتقي مدرسين لا يفهمون مقصوده، وربما نظرات الريبة التي تلحقه ستتكرس لترسيخ المزيد من القطيعة, أما المعاهد الدينية فهي

معنية بالتبشير أكثر من الحوار، والهدف الذي ترسمه لهكذا زائر هو إخراجه من دينه وإدخاله في ديننا، وهذا الأمر يكرس حالة من الرفض والإحساس بخطورة هذا الآخر الذي لا يفهم إلا لغة الإقصاء والإلغاء، وهنا فإن الأسرة الثقافية في الوطن العربي والامة الإسلامية مطالبة بأن تتحرك وان تدرك أهمية فتح أبواب الحوار على أساس من نقد الذات أولاً والتقدم بخطاب إلى العالم.

بعض الإعلاميين والحالمين وبعض السياسيين العرب يتصورون أن إطلاق قناة فضائية عربية باللغة الإنكليزية سيحل المشكلة؛ أنا شخصياً لا أعتقد أن ذلك سيغير شيئاً من المعادلة أولاً .أنا موافق على أن تطلق هكذا محطة ولكني لست متفائلاً بتأثيرها، هذه المحطة أما أن تقول الحقيقة عن واقعنا وستكون النتيجة مزيداً من الحواجز بيننا وبين العالم المتحضر, وإما أن تكذب من أجل أن تصل إلى مسامع الغربيين، وللأسف لم يكن حبل الكذب أقصر مما هو الآن اكتشاف حبل الكذب لا يستغرق إلا ثوان على موقع google حيث تتم معرفة الواقع ليس كما يريده جهاز إرسالك بل كما يستطيعه طبق استقباله، ووفق قدراته لا وفق رغباتك.

يمكن توضيح هذه الحقيقة من خلال تجربة النبي عندما كتب رسالته في البلاغ المبين لملوك الأرض ربما نتصور أنه أصدر كتابا من مئات الصفحات ودلل بالحجج والبراهين والأدلة في الواقع لم يكن خطابه للملوك أكثر من سطور قليلة "أما بعد: أسلم تسلم يؤتيك الله أجرك مرتين وإن توليت فإنما عليك إثم الاريسيين" وعندما تبحث في هذه السطور لا تكاد تجد المحسنات البديعية والإطناب والجناس والاستعارة والكناية ولكن الإعجاز هنا هو الإنجاز، عندما يقول لهم الإسلام يجب أن يحكم فالدليل هو ما أنجزه على الأرض هذه الأمة كان بعضها يأكل بعضاً، وكانت تخلد جرائمها بفخر في قصائد تعلق على جوف الكعبة وسط إعجاب جمهور عريض من الناس، ها هي تتوثب وتستعد لتصبح سيدة العالم، بعد أن حققت العدالة الاجتماعية والنهوض الذاتي، وهي قادمة لبناء الحياة، ونشر قيم الفضيلة والحق والخير، وعليكم أن تدركوا هذه الحقيقة، وهكذا فقد كانت بلاغة الخطاب في إنجازه.

حوار الحضارة... من طوكيو إلى ذي القرنين

قبل سنتين كنت أحاضر في جامعة الحب والسلام في كيوتو في اليابان وكان معي صديق عزيز وهو السيد إسماعيل ياسين قال لي بعد محاضرة ساخنة ومليئة بالحوار والجدل: أنا أنصحك أن تتوقف عن هذه المحاضرات إننا لن نبلغ مكمن التأثير فيهم مادام وضعنا العربي الإسلامي بهذا الهوان والتفرق والتشتت والتخلف والجهل فمن غير المعقول أن يتصور الياباني أن لديك شيئاً يمكن أن ينفعه وبلادك في هذا الواقع المحزن، لقد كانت كلمة تعبر عن مزج الإحباط بالحقيقة، وربما كانت بياناً واضحاً عن التناقض الذي نعيشه بين قوة الخطاب وبؤس الواقع.

قدمت سورة الكهف في القرآن الكريم أوضح الصور لتطبيق الشريعة الإسلامية وفق الهدي القرآني الذي أقرته الشريعة ودعانا إليه الإسلام، ومن العجيب أن سورة الكهف وحدها من بين سور القرآن الكريم استأثرت برواية أربعة من القصص القرآني لم تتكرر في موضع آخر أبداً، فقد جاءت في سورة الكهف قصة أصحاب الكهف وصاحب الجنتين وموسى والخضر وذو القرنين، ولم تتكرر أي من هذه القصص في سورة أخرى على غير نسق القصص القرآني الذي يتكرر في سواها من الآي القرآني.

قصة ذي القرني ترسم لنا في القرآن خبر الحاكم الصالح ذو القرنين كما وصفها القرآن الكريم، وحين نقرأ السورة قراءة واقعية لا بد أن نقف على دلالات تختلف عما تعودنا عليه من تفسير القرآن التراثي، ويسألونك عن ذي القرنين فقل سأتلو عليكم منه ذكراً، إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً

إذن لقد أعد دولته وحكمه بالتمكين في الأرض وامتلاك وسائل الحضارة وأدواتها وقدراتها، من العلم والمعرفة والنظام والقوة، ثم ذكر لنا القرآن الكريم ثلاثة آفاق تحرك فيها ذو القرنين: الأول إلى مغرب الشمس والثاني إلى مطلعها والثالث بين السدين.

ففي الأولى وجد قوماً يظلم بعضهم بعضاً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً، وأما من آمن وعمل صالحاً فسنقول له من أمرنا يسراً

فكان عدوه الأول إذن هو الظلم وقد قاد جهاده للقضاء على الظلم والقهر حتى حقق العدالة في الأرض.

وفي الأمة الثانية التي وجدها عند مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً فقد كانوا من الفقر بحيث لا يجدون ما يلبسون فكانت مهمته إذن تخليصهم من الفقر والقضاء على أسبابه ومبرراته، وكان بالفعل حرباً على الفقر لا حرباً على الفقير وحرباً على الجوع لا حرباً على الجائع وحرباً على الظلم لا حرباً على المظلوم.

وفي الجولة الثالثة يذكر القرآن الكريم خبر أمة ابتليت بالجهل حتى تسلط عليها أعداؤها: حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً.

لقد كانوا يرغبون بالخلاص من عدوهم ولكنهم لا يملكون القدرة ولا الكفاءة والإرادة وكان ذلك كله موجوداً لديه، فقال: أعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً.

لقد كان ذو القرنين إذن قائداً عظيماً يمتلك التفوق التكنولوجي والخبرة العلمية الرائدة حتى تمكن من بناء سد عظيم من النحاس والرصاص تمكن به من إيقاف زحف جيش يأجوج ومأجوج، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ، قال هذا رحمة من ربي.

لقد ضرب لنا القرآن الكريم أبلغ المثل بسيرة ذي القرنين، حين حدد بدقة أعداء الأمة وتمكن من الانتصار عليها وهي الظلم والفقر والجهل، وتمكن من الانتصار عليها بالعلم والحكمة والإرادة.

إنه السلوك نفسه الذي حققه سيد الأنبياء محمد ε حين جعل من مدينته الطاهرة فردوساً على الأرض يعم فيه العدل والخير وتمكن من مضاعفة الرقعة الخضراء، وأعاد توزيع الثروة عن طريق الزكاة والصدقات فحقق عدالة فريدة، ونشر العلم والمعرفة حين جعلها شعار دعوته ورسالته انطلاقاً من أول حرف في التنزيل اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

بهذا المشهد الإيماني والنجاح الاجتماعي العظيم أمكن القول إن محمداً طبق الشريعة في المدينة.

عندما فاض المال في أيام عمر بن عبد العزيز حتى لم تجد له آخذاً وطاف الناس في الشوارع يبحثون عمن يأخذ الزكاة منهم فلم يجدوه كان ذلك صورة أخرى من صور تطبيق الشريعة، ولكن هل نحقق اليوم تطبيق الشريعة كما تعلمه السنة النبوية الشريفة؟

قبل شهرين كنت في نيجيريا مشاركاً في مؤتمر خاص لتقويم تجربة تطبيق الشريعة في نيجيريا، كنت أقرأ في المؤتمر حقيقة السعي الذي ينبغي أن نتطلع إليه إذا كنا جادين لتطبيق الشريعة في الأرض، حين حطت بي الطائرة في ميدغري في ولاية برونو التي طبقت الشريعة كانت تطوف بخاطري هذه المشاعر فمعنى أننا طبقنا الشريعة وفق هدي القرآن الكريم في خبر ذي القرنين أننا قضينا في برونو على الأعداء الثلاثة الظلم والفقر والجهل، ومعنى ذلك أننا وفق تجربة عمر بن عبد العزيز لن نجد من يأخذ الزكاة ولا من يعاني مرضاً لا طبيب له، وسنجد الطلبة جميعاً يسعدون بأفضل ظروف التعلم والدراسة العالية.

ولكنني في الواقع لم أجد هذا المعنى الذي كنت أبحث عنه، لقد وجدت في ميدغري بئراً معطلة وقصراً مشيداً، ووجدت فيها المرضى بالتخمة والمرضى بالجوع، ووجدت المتسولين يملؤون الشوارع وجدت قصوراً بالغة الفخامة، وعلمت بعدئذ أن نسبة الأمية قد ترتفع إلى أربعين بالمائة في الرجال وأكثر من ذلك في النساء.

إنني أشعر أننا نبالغ كثيراً حين نتصور أننا نطبق الشريعة إذا قطعنا بعض الأيدي وجلدنا بعض الظهور من دون أن نحقق مقاصد الإسلام الكبرى في نشر العدل والأمن والكفاية والمعرفة في المجتمع، وعند ذلك سيكون رجاؤنا من تطبيق الشريعة في غير السبيل الذي نتوجه إليه، أو نرجو الوصول إليه.

إننا نحتاج إلى نقد الذات والتقدم بخطاب حضاري إلى العالم, بغير ذلك لن يكون لنا موقع بين الأمم، إن العالم لن يصغي إلينا إذا كنا نمارس النفاق.

حوارات: لم تقولون ما لا تفعلون؟

إن المنجز الإسلامي ليس هذه الأحرف المخطوطة في المصحف بل هو بناء الحياة التي نستنير في بنائها بالقرآن والسنة، ولكن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ليست الهدف الذي نسعى إليه نحن نهتدي بهما ولكن الغاية هي بناء العدل والإحسان إلى الخلق، قال الله عز وجل" لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" إقامة القسط والعدل هو مقصود الأنبياء.

وأختم هنا بموقف طريف للشيخ أحمد كفتارو رحمه الله، وكان رجلاً حكيماً ففي أول دعوة له لأمريكا وحين كان إخوانه يودعونه في المطار قال لهم لقد أعددت عدداً من المحاضرات أعطيتها للمترجم ليترجمها إلى الإنكليزية وقد استعددت لكل الأسئلة التي يمكن أن توجه إلي إلا سؤالاً واحداً لم أجد له جواباً!! قالوا له: وما هو هذا السؤال؟ نحن عون لك، بإمكاننا أن نبحث في كل الكتب عن جواب لهذا السؤال!! قال لو كان في الكتب لوجدت جوابه، ولكن أنا ذاهب إلى أمريكا لأقول لهم أن الإسلام دين تقدم وحضارة وحب وخير ووحدة وطهارة ونظافة ولكن ماذا لو واجهوني بالسؤال البدهي إذا كان ذلك كذلك فلماذا أنتم كذلك؟ إن كل ما أدعوهم إليه سيتبدد بجدل هذا السؤال، ليس لدي جواب!!

إن مثل هذا الموقف يلقي بظلاله على مشروعنا الحضاري الذي نتطلع إلى بنائه، وإنه لا يمكننا أن نفعل شيئاً قبل نقد الذات نقداً واضحاً وصريحاً، ولا يمكن أن نخوض جدلنا مع الآخر من دون أن نفتح حوارنا الداخلي مع الذات إلى أبعد مدى وأن نأذن بالتعدد والاختلاف في وعينا الديني والاجتماعي، وبالتالي فتح القنوات مع الآخر على أساس من الرغبة المشتركة في إنتاج وحدة الحضارة وبناء الحياة، وفق قيم القرآن الكريم من التعاون والتعارف والتدافع، كل في الأفق الذي يستدعيه، وليس في تصدير الثورة أو إلغاء الآخر.

انتهى

د.محمد الحبش
مدير مركز الدراسات الإسلامية

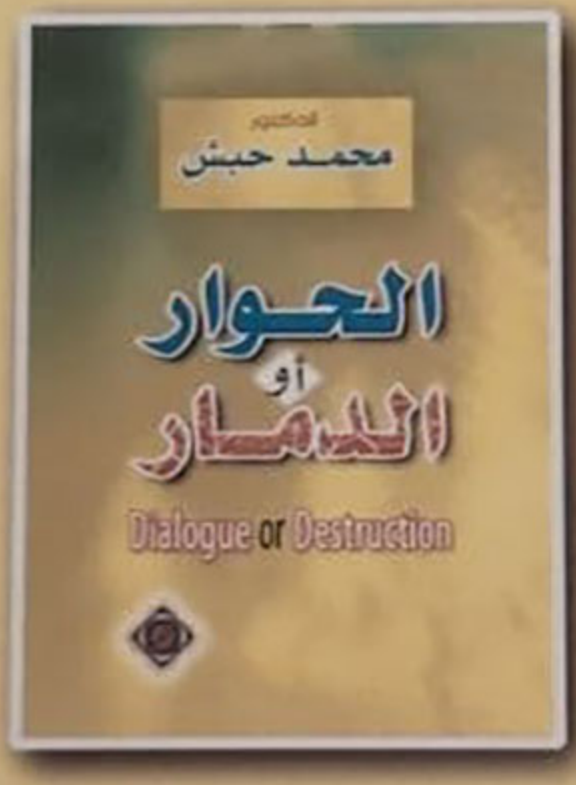

دار ندوة العلماء
ص.ب 4344 هاتف 2771567
www.drkftaro.com